الاستعانة والتوبة

أصناف الناس:

لو تأملنا الناس في ساعات الضيق لوجدنا مشهداً عجباً، أيد ترتفع بالضراعة، وعيون منكسرة خائفة، وقلوب واجفة وألسن تلهج بالدعاء.

الكل يطلب المعونة من الله بعد أن وجدوا أنه لا ملجأ منه إلا إليه ولا خلاص لهم مما هم فيه إلا برحمة منه سبحانه، ولا وسيلة لهم إلا الدعاء.

والله سبحانه وتعالى علمنا أن المعونة لا تكون إلا استحقاقاً لمن جعل حياته مصداقاً لقول الله في أم الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فهذا هو أرفع أنواع الإخلاص.

عبادتنا صاعدة إليه من نفس قد عبَّدتها الطاعة وصفَّاها اليقين وألسن تلهج بذكره سبحانه، تسبحه وتحمده وتمجده في كل صلاة، في السراء قبل الضرَّاء، والمعونة نازلة من عند الله إلى عباده الطائعين رحمة منه وفضلاً.

لكن هناك صنفاً آخر من البشر لم يتقرب لله بسجدة ولم يعبِّد نفسه بركعة ولم يحمد الله على نعماء أصابته ولم يذكر فضل

الله عليه ومع ذلك عندما تضيق به الدنيا يرفع يديه بالدعاء طالباً العون والمساعدة والخلاص مما هو فيه.

لو قدمت الطاعة والعبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لاستحققت المعونة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لكنك قد قدمت العصيان والجحود فأنى يستجاب لذلك.

لقد أخبرنا الله عز وجل عن هذا الصنف من الخلق وعن كونهم من أهل النار فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد استحقوا ذلك لأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فقد غرَّهم بالله الغرور واستكانوا إلى الدنيا ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ نعم الله عليهم التي يجب أن نحمده ونشكره عليها ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ دعوة الحق ودعاء الداعي إلى الإيمان، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ التي لا عقل يقودها ولا راع يرعاها ولا وازع لها من خلق أو دين ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تعبد الله غريزة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179] لأنهم لم يستعملوا جوارحهم في عبودية الله تبارك وتعالى فقد عطلوها بالضلال.

إن الأنعام والبهائم كلها تعمل بما أمرها الله به وما خلقها الله له وتستغل جوارحها في الحصول على ما أباحه الله لها من منافع الدنيا.

لو قربت لأي بهيمة وعاءين، في أحدهما خمر وقد أضفت إليه أجمل الروائح، وفي الآخر ماء، لوجدتها تبتعد عن الخمر

وتندفع نحو الماء لأن جوارحها موظفة لما فيه نفعها فهي تفعل ما ينفعها مهما كانت المغريات.

لو رميت أمام جحش خيارة وسيجارة لرأيته يندفع ليأكل الخيارة ولا يقرب السيجارة ولو قربتها إليه لأنه يعرف ما ينفعه مما يضره.

الفطرة

الطفل الصغير تسأله فيجيبك بوضوح وصدق وصراحة، لا يداور ولا ينافق ولا يكذب فهو ما زال على الفطرة، أما عندما يكبر فإنه يتعلم النفاق، يكرهك لكنه يقابلك بوجه مبتسم، يكيد لك فإذا التقاك داهنك بكلام يفيض سمناً وعسلاً فإذا أدرت ظهرك سلقك بلسان أحد من السيف يفيض سمّاً زعافاً.

الفطرة جعلت الصغير ينطق بالصدق، والإنسان العارف بحقوقه وواجباته يلجأ للكذب والمداهنة، وكان الأحرى به أن يصير واعياً لعاقبة كل أمر لكنهم كما وصفهم الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

إنهم يطالبون بما لهم من حقوق وينسون ما عليهم من واجبات يعصون الله فيما أمرهم ثم يقولون: يا رب، يا رب.

لقد عطلوا جوارحهم عن الفطرة التي خلقهم الله عليها، فلهم قلوب تتبع الأهواء وتبتعد عن طاعة الله، ولهم عيون ينظرون بها إلى ما حرَّم الله ولا يرون بها نعم الله عليهم

فيحمدوه، ولهم آذان يسمعون بها كل ناعق ببوق وكل داعٍ إلى ضلالة، ويصمّونها عن سماع كلمة الحق والدعوة إلى الله، يسمعون المؤذن ينادي للصلاة، والقارىء يقرأ القرآن فيمرون بذلك عابرين، لأن أسماعهم معطلة عن الطاعة وذكر الله لا يصل إلى قلوبهم، وإذا ذكر غيرهم الله في مجلس تحدثوا عن المباهج الحرام والمكاسب الحرام، وعن فلان وعلاّن.

محكمة الجوارح:

لقد عطلوا قلوبهم وأعينهم وأسماعهم وألسنتهم عندما تركوا ذكر الله واستعملوها في المعاصي، ولذلك عندما يأتون يوم القيامة للحساب تتعطل هذه الجوارح والحواس، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يسٓ: 65].

الأيدي التي كانوا يمدونها إلى الحرام تشهد عليهم، والأرجل التي سعوا بها إلى المعاصي تشهد عليهم، والجلود التي اعتنوا بتنظيفها وتعطيرها ليقابلوا بها أهل البغي والبغايا تشهد عليهم بما كانوا يفعلون.

أمام هذه الشهادات التي لا يقدرون على ردها أو دفعها تأخذهم الدهشة ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن كنا ندافع عنك لكي لا يصيبك العذاب ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي قالت الجلود ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت الآية: 21].

obeikandl.com

قاعة الامتحان:

نحن في هذه الدنيا نعيش في قاعة امتحان كبرى كل طالب فيها يجلس إلى طاولة، بعضهم مجتهد، وغيرهم كسول، وآخرين يحاولون الغش، البعض يخطىء والبعض الآخر يصيب، والمراقبون يتجولون في القاعات، ولجنة الامتحان لها وقت هو العمر الذي نعيشه والحياة التي نحياها، والقاعة هي الدنيا، ولا يمكن لأي واحد من الطلاب أن يغش لأن الأسئلة مختلفة، إذ كل طالب يقدم امتحاناً مختلفاً، فهذا امتحانه في المال، وذاك امتحانه في الصحة، وثالث في الأولاد ورابع في السلطان وخامس وسادس إلخ، وهذه امتحانها في زواجها وتلك في سعادة وثالثة في جمالها وهكذا، ولذلك لا يمكن لأي واحد أن ينقل من ورقة غيره؛ فكل واحد عليه أن يجيب على الأسئلة المقررة له وهو لا يعلم المدة المحددة للامتحان فلكل واحد مدة مختلفة، هذا قد تطول مدة امتحانه حتى تبلغ المائة عام وذاك قد تقصر فتقل عن عشر سنوات، وقد تكون أقل أو أكثر، فالبعض عشرون أو ثلاثون أو أربعون إلخ. . . ، لكنه على كل حال لا يعرف متى يمر المراقب به ويأخذ الورقة من يده لأن زمن امتحانه قد انتهى.

الامتحان لا يمكن الاعتراض عليه فهو إما نعمة أو ابتلاء والأجوبة إما صبر وشكر أو نعمة وبطر؛ ولك أنت وحدك أن تحدد طريقة الإجابة.

الحساب:

لقد وصف رسول الله ﷺ حال الناجحين فقال: «عجبت لأمر المؤمن، كله خير، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» أما من نقم واعترض فقد باء بالخمران إذ ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ ربنا سبحانه وتعالى ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بخلقه فهو أعلم بحالهم ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] عمَّا يفعلون.

فمن خرج من الامتحان وقد أجاب على الأسئلة كما يحب الله ويرضى فهو مطمئن إلى النتيجة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ لما فعلت في الدنيا ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: 28 – 30]؛ والله سبحانه وتعالى شديد الكرم، أما الناس فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فالموت حق ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كل حسب عمله ﴿فَمَن﴾ كان راضياً مرضياً ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ برحمة منه وفضل ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ تكرُّماً منه تعالى لأنه حمد وصبر وشكر ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ لمن نقم وكفر أو اغتر وبطر ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185] فمن غرَّه بالله الغُرور فقد باء بالخمران.

الشهود:

ولجنة الامتحان تضم عدداً كبيراً من المراقبين، وأول هؤلاء المراقبين هم الأيدي والأرجل والجلود، كما رأينا، ومن

يظن أنه يمكنه التهرب والمداورة والكذب فسيجد كل شيء مكتوباً في كتاب فإذا جاء الحساب ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وانشغل كل إنسان بكتابه ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فقد تذكروا أعمالهم وعرفوا النتيجة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

شهود لك وشهود عليك:

وما دام كل شيء مكتوباً فلن يستطيع أحد الفرار ولا بد من الاعتراف إن كنت قد قصرت أو غلطت أو أخطأت والشهود حاضرون؛ وكل يوم نعيشه في هذه الدنيا شاهد علينا، فالليل يشهد بما عملنا فيه والنهار يشهد على أفعالنا، وكلما طلعت شمس نادى اليوم الجديد: «يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإن ذهبت فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

ليس هذا وحسب، فموضع سجودك إن صليت شاهد وموضع عصيانك إن عصيت شاهد عليك؛ والقرآن شاهد لك أو عليك، فعندها يموت صاحب القرآن، يصعد القرآن فيقول: «اللهم إن صاحبي قد مات فشفعني فيه» فيشفع القرآن بصاحبه ويرجع فيصير واقياً بين الإنسان وكفنه.

شهادة الأهل والأزواج:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

obeikandi.com

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، فعندما تقف بين يدي الله عز وجل ستشهد عليك زوجتك، وأنت تشهد عليها ويشهد عليك أولادك وأنت تشهد عليهم، إن عملت خيراً شهدوا لك بالخير، وإن عملت شراً شهدوا عليك بالشر.

شهادة النبي ﷺ:

ويشهد يوم القيامة كل نبي على أمته أنه بلغهم الرسالة وأدى الأمانة وليس لهم حجة أو عذر بعده فلا يقدرون على الإنكار أو ادعاء الجهل، والرسول ﷺ يكون شاهداً علينا كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: 89].

شهادة المسلمين:

قد يقول بعض الناس: لقد بعد العهد بيننا وبين أنبيائنا، وقد حرَّف من قبلنا وضلَّ فاتبعناهم ونحن نظن أننا نتبع الحق والصدق، ولكن الله لم يترك لهم حجة، فراية الإسلام مرتفعة ودعوة الحق منتشرة ميسرة لكل من له أذنان ليسمع وعينان ليقرأ وقلب ليعي، وعقل ليتدبر، والمسلمون لا يألون جهداً في الدعوة إلى الدين الحق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، فهم سيشهدون أن الأنبياء قد بلغوا أقوامهم لأن القرآن الكريم قد أعلمنا بذلك والرسول ﷺ قد أخبرنا بذلك.

obeikandl.com

شهادة الملائكة الحافظين:

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 18]، فالملائكة الحافظون لا يدعوننا في ليلة أو نهار يكتبون كل ما نقول أو نفعل من صغير أو كبير.

شهادة الله عز وجل:

قد تصل الوقاحة بالبعض أن يقف بين يدي الله تعالى ويكذب، فيقول: والله ما زنيت وإنما يقول فلان ذاك لأنه كان يكرهني في الدنيا، والله ما سرقت ولكن هذا الشاهد قد أخطأ وظن أني أنا السارق، والله ما فعلت هذا أو ذاك من الأمور.

أعوذ بالله من غضب الله، إن أحدهم لا يجرؤ على الكذب أمام ضابط أو محقق أو مسؤول من أهل الدنيا، لكنه يقف بين يدي الله ويكذب، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 18] ظنًا منهم أنهم كما نجوا في الدنيا من حساب الناس بالأيمان الكاذبة سيتخلصون من العذاب في الآخرة بنفس الطريقة ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: 18].

إن حزب الشيطان هؤلاء لا خير فيهم، فقلوبهم مسودة قد ران عليها الضلال وعيونهم مغلقة قد أعمتها الأطماع ونفوسهم سيئة قد خربتها الشهوات، فكيف يمكن لأكاذيبهم أن تنفعهم والشاهد عليهم هو الله عز وجل ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 79].

obeikandl.com

مذاق الموت:

ولأن أعمال الناس مختلفة ومصائرهم كذلك فإن لطعم الموت في أفواههم مذاقات مختلفة أيضاً. البعض يحس مذاق الموت في فمه مر كالعلقم، مرارته لا تحتمل ومذاقه لا يستساغ تكاد حلوقهم تحترق منه لأن نفوسهم تعرف وتدرك أنها صائرة إلى ما قدمت، وما قدمته من أعمالٍ عاقبته إلى وبال وسوء حال، ونار وقودها الناس والحجارة.

والبعض يحس أن طعم الموت في فمه كطعم العسل، لأنه يعلم أنه صائر إلى لقاء ربه، ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه، ولذلك تراه مشتاقاً لهذا اللقاء يترقبه، فيقدم بين يديه أحسن الأعمال والطاعات وأكمل ما يستطيع من عبودية لله.

تصوروا أننا أمام ملك في قصر كبير، وقد وضع أمام كل منا أدوات الطبخ ومعداته وما نحتاجه من مواد لإعداد الطعام، وأمر كل واحد منا أن يعد الصنف الذي يريد.

كل واحد سيعد الطعام حسب ذوقه ورغبته، لكنه بعد أن ننتهي من إعداد الوجبة سيأمر كل واحد أن يأكل الوجبة التي أعدها، فطابخ السُمِّ سيأكله وطابخ الحلوى سيتلذذ بها.

وهكذا نحن في الدنيا، كلٌّ يعمل على شاكلته وطريقته، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ، وبعد ذلك توفى كل نفس ما كسبت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ فلا مفر منه فإن قدمت الأعمال

الصالحة كان مذاقه كالعسل، وإن قدمت المعصية والضلال أو الكفر والجحود، فمذاقه كالعلقم ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كل حسب عمله ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنعيم المقيم، ومن استحق النار فبعمله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : 185].

الاغترار بالدنيا:

ولأن الحياة الدنيا متاع الغرور فهي دار فتنة، ومن يغتر بها وتفتنه يهيم في كل واد، فهو يعيش لنزواته ورغباته، ليستكثر من الأموال والأولاد والدور والقصور والزينة ويتعاظم على الناس ظناً منه أنه باق خالد، بل إنه حتى لو فكر في الموت فإنه يعتبر الموت نهاية كل شيء فلا بعث ولا حساب.

إن من ينكر البعث والحساب، لا يمنعه شيء عن ارتكاب المعاصي فقلبه في غلاف من صدإ الخطايا والذنوب، وكلما زادت خطاياه وذنوبه زادت كثافة الصدإ على قلبه فازداد ظلمة وعتمة وأقبل على الدنيا يغترف منها كما يحلو له، لا يمنعه ولا يردعه عقل ولا إيمان ولا خوف من عذاب يوم عظيم؛ ويظن أنه إن ترك الأموال والعقارات والثروات على اختلافها لأولاده فسيكونوا أسياد الناس من بعده كما كان هو في حياته.

مطعمه حرام، وملبسه حرام ومشربه حرام ومن هذا الحرام يغذي أولاده، ويدفعهم في حمأة الحرام مثله وهو يظن أنه يحسن

صنعاً، ولو تأمل في حال من سبقه ممن اغتروا بالدنيا وظنوا أنها باقية لهم ولأولادهم وأحفادهم فوجدهم قد صاروا أثراً بعد عين لربما ارعوى، ولكن قلوبهم في غلاف من المعاصي، وهم لا يساوون عند الله مثقال ذرة ومآلهم إلى عذاب مقيم لا نهاية له، ولذلك تراهم يقبلون على الدنيا، فهل يتفكرون فيما بعدها؟ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: 14]؛ ويوم القيامة هل يرون ربهم إذ يتجلى لعباده؟ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: 15].

الصنف الأسوأ:

قلنا إن الناس أصناف، وتحدثنا عمن يعبد الله ويستعين به، وعن الصنف الذي لا يعبد الله ويستعين به والصنف الذي لا يعبد الله ولا يستعين به، ولكن الصنف الأسوأ هو الذي لا يعبد الله ويستعين به ولكن على المعاصي؛ تراه لا يعبد الله ولا يسجد سجدة لله ومع ذلك كل كلامه: الحمد لله والشكر لله.

ترى أحدهم يستعد للذهاب لنادٍ للعب القمار وهو يقول: أنا ذاهب للعب القمار وأرجو أن يوفقني الله وأرجع رابحاً فأفعل كذا وكذا أو أسدد دين فلان الخ. . .

اللص يصعد لسرقة منزل ويتسلق مواسير البناء وهو يطلب من الله أن يستره ليعود بغنيمة وافرة.

رئيس عصابة يعد خطة تهريب أو نهب أو ما شابه ذلك ثم يقول لرجاله: توكلوا على الله.

الراقصة تصعد لأداء رقصتها وهي شبه عارية فتقرأ الفاتحة هي وفرقتها وتطلب من الله أن يكون معها في أداء رقصتها؛ وأمثال هؤلاء كثير، هم لا يستحون من الله لعصيانهم بل يزيدون على ذلك بأن طلبوا منه العون على معاصيهم والعياذ بالله؛ يتوكلون عليه وهم يعصونه فيما أمر.

قال رسول الله ﷺ: «المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بالله».

إنه بتصرفه هذا يتطاول على الله عز وجل، فهو لا يعبد الله ومع ذلك يطلب منه العون والمساعدة ولا يكتفي بذلك بل يريد الاستعانة به على المعصية أيضاً.

إذا عاش في نعمة وخير نسي كل شيء واستغرق في الملاهي والشهوات، وإذا مسَّهُ ضرٌّ كان كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: 8].

يكون في مركب أو سفينة وسط البحر فتهب العاصفة وتثور الأمواج وتصير السفينة دمية ترتفع وتنخفض وتكاد تبتلعها المياه التي ارتفعت كالجبال فيجتمع الركاب يدعون الله طالبين منه

obeikandl.com

العون راجين النجاة، هذا يصلي وذاك يدعو والآخر يستغفر فإذا انقضت العاصفة وهدأت الريح عادوا إلى لهوهم وقصفهم وشربوا نخب نجاتهم فرفعوا كؤوس الخمر عالياً مبتهجين وعانقت النساء الرجال للتهنئة غير آبهات بحرام أو حلال.

يطلع صباح يوم الجمعة على الناس، وفي الملعب الكبير تقام مباراة كبرى للمنتخب.

السيارات ملأى والباصات تسد الطرقات وقد امتلأت عن آخرها وفوقها يجلس ركاب آخرون وغيرهم قد تعلق بالشبابيك والكل مسرعون إلى الملعب الكبير.

البعض خرج قبل الفجر ليقف عند أبواب الملعب ليكون أول الداخلين، يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ولا من مستمع إلا من رحم ربي، ترتفع أصوات الجماهير بالهتاف للاعبين والمؤذن يقيم الصلاة، يهبون هبة رجل واحد فرحين بهدف حققه أحد اللاعبين، وخطيب الجمعة يعظ الناس.

أُذِّنَ لصلاة العصر والحديث ما زال عن الجناح الأيسر ماذا فعل وقلب الهجوم كيف سدد الكرة إلى الهدف، وحارس المرمى كيف تلقَّى الكرة أو دفعها بعيداً.

يؤذن المؤذن لصلاة المغرب والاجتماعات لم تنفض في المقاهي والحديث معاد مكرر إما فرحة بكسب المباراة أو شتائم لأن الهزيمة حلت بالمنتخب.

والمصيبة الأكبر إن كانت المباراة بين فريقين محليين، فترى المعارك الكلامية والتي تصل إلى حد التشابك بالأيدي وربما لما هو أكثر بين أنصار الفريقين، وإن كانت مباراة بطولة الدوري أو الكأس فلربما وقع جرحى من الفريقين.

الناس تصلي في المسجد وهم يتفرجون في الملعب على المباراة ويدعون الله أن ينصر فريقهم.

الناس تستغفر في المسجد وهم يكيلون الشتائم للمهاجم لأنه لم يحقق الهدف المرجو.

الناس تسبِّح لله وتحمده في المسجد وهم يهاجمون الحكم لأنه أعطى ضربة جزاء للفريق الخصم.

ألا ينتبه هؤلاء أنهم جعلوا الكرة نِدّاً لله وهم منشغلون بها عن الصلاة.

لقد ناداهم المؤذن للصلاة، لأداء الفريضة التي افترضها الله عليهم، ونادتهم الكرة للفرجة فتبعوا الكرة وتركوا داعي الله.

التوبة والاستغفار:

لو رأيت أباً متخاصماً مع ابنه، وطُلِبَ منك الإصلاح بينهما فهل تطلب من الأب أن ينحني ليقبل يد ابنه ويعتذر إليه ليصالحه أم تطلب ذلك من الابن؟

قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر**

obeikandl.com

كبيرنا»؛ وأنت بالطبع ستطلب من الابن أن يعتذر إلى أبيه وسترجو الأب أن يسامح ابنه ويغفر له زلته.

وأنت عندما تكون عاصياً لله، هل تنتظر منه أن يعينك ويساعدك أولاً لتستغفر وتتوب بعدها؛ أم تبدأ بالتوبة والاستغفار والعبادة لتطلب منه العون لاحقاً؟ بالطبع عليك أنت أن تبدأ بالتوبة وتتخلص من المعصية وتطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى.

شروط التوبة:

الشرط الأول: الندم، فعليك أن تندم على ارتكابك الذنب والمعصية وأن تحزن فعلاً لأنك ارتكبت هذا الذنب، وأن يكون طعم الخطيئة في فمك كطعم العلقم، فإن كنت ما زلت سعيداً بما ارتكبت من ذنب تحس بالراحة لما فعلت فأنت ما ندمت أبداً.

الشرط الثاني: أن تتخلص من المعصية وتقلع عنها، فمن يريد التوبة من شرب الخمر، عليه أن يرمي ما بقي منها عنده وأن لا يعاود شربها، أما أن يدعي التوبة من شرب الخمر وخزانته أو ثلاجته ملأى بزجاجاتها فهذا كالمستهزىء بالله والعياذ بالله.

الشرط الثالث: العزم الصادق على عدم المعاودة، فلا يتوب اليوم ليعاود غداً، كمن يعطي لنفسه إجازة من المعاصي لفترة يعود بعدها وكأن شيئاً لم يكن، فمدمن الخمر هو من يعاود شربها ولو بعد حين، أو من يرمي ما عنده ليشرب ما يجده عند

صاحب له بعد فترة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8]؛ والتوبة النصوح هي ترك المعصية وعدم معاودتها، وإن عاودها ضعفاً أو خطأً تذكر فأقلع عنها وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135]. وبعد أن استغفروا أقلعوا صادقين عنها ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]. هذه الشروط الثلاثة لو توافرت صحت التوبة فإن صحت التوبة واستغفر العبد من ذنبه وعزم صادقاً على عدم العودة غفر الله له ذنبه.

والندم يبدأ في القلب فيغتسل القلب من حب المعصية والرغبة فيها مع النية الصادقة على عدم المعاودة؛ فإن عاود مخطئاً أو ناسياً، عاود الندم والاستغفار.

جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ حزيناً، فسأله عمَّا به، فقال: يا رسول الله إني امرؤ خطَّاء؛ فقال له النبي ﷺ: «**اذهب واستغفر**» فقال: أعود وأذنب، فقال له النبي ﷺ: «**عد واستغفر**» قال: أعود وأذنب، فقال الرسول ﷺ: «**عُد واستغفر**»، فقال أبو ذر رضي الله عنه: «إذن يا رسول الله يكثر خطئي، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، اعلم أن رحمة الله عليك أعظم من إكثارك على نفسك بالذنب**» ما رأيكم بهذا

الحديث، ألا ترونه هدية لا تعادلها هدية؟ إن إكثارك على نفسك بالذنب يعالج وليس داءً مستعصياً ودواءه التوبة الصادقة؛ وباب التوبة مفتوح لك ما دمت حياً إذا عزمت حقاً وصدقاً على عدم المعاودة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: 110] فهل هناك لطف أو رحمة أو بركة أكثر من هذا؟

المغفرة والعقاب:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6] فالله عز وجل ذو مغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وعزم على عدم المعاودة وهو شديد العقاب لمن أصر على المعصية؛ يقول الإنسان لنفسه: «سأتوب غداً» وكل غد يليه غد فلا يتوب ويظل يسوِّف، أو تقول المرأة لنفسها: «سوف أتحجب عندما أخطب، وبعد أن تخطب تقول: سأتحجب عندما أتزوج، فتتزوج، فتقول: ما زلت صغيرة السن سأتحجب عندما أتقدم في العمر قليلاً، وما أدراها متى تموت؟ أو تقول: سأتحجب عندما أحج، وما أدراها هل يكتب لها الحج أم لا؟ أم تموت قبل أن تحج، وهكذا تظل تسوِّف ويلهيها الأمل، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: 83] و[سورة المعارج: 42]؛ وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

[الحجر: 3]؛ سيعلمون يوم يأتيهم الموت فجأة بمآلهم ومصيرهم فالموت لا يعطي إنذاراً مسبقاً، ولا يأتيك إعلام ولا إعلان به قبل فترة أو كما يقال قبل أربعين يوماً من التنفيذ؛ ولست في مباراة لكرة القدم ليعلمك الحكم بأنك في الدقائق الأخيرة أو ليسمح لك باللعب في الوقت بدل الضائع، فما تضيعه من عمرك لن يرجع أبداً.

ألم تسمع عن أشخاص كانوا في طريقهم لقبض جائزة فسقطت بهم الطائرة؟ أو عن شخص كان ذاهباً ليعقد قرانه على عروسه فقتل في حادث سير؟

ألم تسمع عمن بنى قصراً، وعندما صعد إلى سطحه ليتأمل أملاكه وعقاراته وحدائقه حول القصر زلَّت قدمه فقضى نحبه؟

ألم تر الموت يأخذ الشبان أحياناً والصغار أيضاً ومن تظنه على شفا الموت يشفى ويعمِّر طويلاً؟ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34] و[النحل: 61]؛ وساعتها لا تؤخر حتى تعتذر من فلان الذي أسأت إليه، أو الآخر الذي أكلت ماله ظلماً وعدواناً، أو حتى تتوب وتصلي وتزكي وتحج.

الوقت الآن، إن فعلت ذلك الآن فقد فزت ونجوت وإن سوَّفت ضاعت الفرصة، فالتسويف يتبعه التأخير وبعد التأخير الإهمال والنسيان ثم الغرق في المعاصي واحدة بعد الأخرى.

ليدع كل واحد منا لصاحبه أو أصحابه بكل خير، فمن دعا لصاحبه بظاهر الغيب وكل الله له ملكاً يقول: «ولك بمثل ذلك» أي ولك مثل ما دعوت به لصاحبك.

رد الظالم:

وإن كانت الذنوب ظلماً للغير كمن يغصب أرضاً أو يأكل مال ضعيف أو يتيم إلخ . . فلا تتم توبته إلا بشرط رابع إضافة إلى الشروط الثلاثة التي ذكرناها آنفاً، هذا الشرط هو رد المظالم.

ورد المظالم يكون برد الحقوق إلى أصحابها، فإن كان صاحب الحق ميتاً ترده إلى ورثته.

وإن لم تكن المظلمة مما يرد، كأن تكون قد اغتبت شخصاً أو بهته فاطلب منه المغفرة فإن كان إعلامك له بذلك يسوءه فاستغفر له، وتصدق عنه وإلا جاءك يوم القيامة فأخذ من حسناتك وألقى عليك من سيئاته حتى تفنى حسناتك وتكثر سيئاتك فتلقى في النار.

ومن أكل من مال غيره ولو مقدار نواة من تمر فقد غَلَّ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: 161].

ومن غصب أرضاً يحملها من سبع أرضين ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42].

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: أنه حتى الحيوانات

ستحاسب «فيقاد للشاة الجلحاء المكسورة القرن من الشاة القرناء» التي نطحتها فكسرت قرنها؛ ولذلك قال تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: 5] أي أن الوحوش ستحشر يوم القيامة وتحاسب! ويومها يندم الظالم والجاحد والكافر ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾ [النبأ: 40] صدق الله العظيم؛ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

obeikandi.com